أم زرع في المدينة

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الأمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار العلمية
لتوزيع الكتاب والنشر والتصدير
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

أمُّ زرع في المدينة

اختلطت السيدة عائشةُ رضي الله عنها في المدينة بنساء الأنصار فكن يزرنها في بيتها، وكذلك هي كانت تشاركهُنَّ الأفراحَ والمناسبات بإذن من زوجها رسول الله ﷺ، وقد تحدثت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها عن مجلسٍ شهيرٍ لهؤلاء النسوة من نساء الأنصار، وعلى رأسهنَّ أمُّ زرع، وأمُّ زرع لها مجلسٌ شهيرٌ مع عَشْرِ نساءٍ تعاهدنَ وتعاقدنَ ألاَّ يكتمن من أخبار أزواجهنَّ شيئًا.

وقد روت السيدةُ عائشة رضي الله عنها حديث هؤلاء النسوة للرسول ﷺ، فقال لها في نهاية روايتها لمجلسِ أمِّ زرع مع صاحباتها: «***كنت لك كأبي زرع لأمِّ زرع، إلاَّ أنَّ أبا زرع طلَّق وأنا لا أُطلِّق***»[1].

وفي رواية أخرى قال الرسولُ ﷺ لعائشةَ لَمَّا سمعَ حديثَ أمِّ زرع وصاحباتها: «***كنت لك كأبي زرع في الأُلفةِ والرخاءِ، لا في الضرقةِ والخلاءِ***». فردت عائشةُ رضي الله عنها لحسنِ أدبها وطيبِ أخلاقها قائلة لزوجها الحبيب محمد ﷺ: «**بل أنت خيرٌ لي من أبي زرع لأمِّ زرع**».

تُرى من هي أُمُّ زرع؟ وما هي قصتها مع عَشْرِ النساء؟ ومن أبو زرع زوجُها؟ الذي أثار هذا الحوارَ الدافئَ في البيتِ النبويِّ الكريم والذي كان طرفيه النبيُّ محمد بن عبد الله ﷺ أرحم الأزواج بنسائه وأوفاهم وأكرمهم ﷺ، والطرف الثاني حبيبةُ النبيِّ وزوجه الصدِّيقةُ بنت الصدِّيقِ عائشةُ بنت أبي بكر.

وتبدأ عائشةُ رضي الله عنها قصتها العظيمةَ قائلةً:

«جلست إحدى عَشْرَةَ امرأةً فتعاهدنَ وتعاقدنَ ألاَّ يكتمنَ من أخبار أزواجهن شيئا».

---

(١) حديث أم زرع، أخرجه مسلم (٢٤٤٨).

كان عددُهُنَّ بأمِّ زرع إحدى عشرةَ امرأةً كلٌّ منهنَّ تتحدث عن زوجها ولا تكتم أخباره، وجاءت الآراء بين مدحٍ وذمٍّ، أو قبولٍ ورفضٍ، فتسمع النساءُ والبناتُ آراءَ النساء المسلمات العربيَّات في أزواجهنَّ فيعرفنَ ما تحبُّ المرأةُ من زوجها وما تكرهُ. ولنستعرض رأي كلِّ واحدةٍ منهنَّ، حتي نصل في النهاية إلى رأي أمِّ زرع.

١ ـ لحم جمل:

قالت المرأةُ الأولى: «زوجي لحمُ جَمَلٍ غَثٌّ، على رأس جَبَل، ولا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فَيُنْتَقل».

تتحدثُ عن نوع من الرجال يترفعُ ويتكبَّر ويسمو بنفسه فوق موضعها، فهي تقول على رأس جبلٍ وعر، أي: أنَّه صعبٌ الوصولُ إليه، على الرغم من أنَّه غثٌّ مهزولٌ، ومعنى ذلك أنَّه لا خيرَ فيه أو قليلُ الفائدة لأنَّه كلحم جملٍ لا كلحم الضأنِ الشهيِّ، وهو غثٌّ مهزولٌ رديءٌ، وأنَّه صعبُ التناولِ لا يصل إليه الإنسانُ إلاَّ بمشقة شديدة.

وقدَّ عدَّد العربُ أوصافَ وصفات الأزواج في نثرهم وشعرهم فقالوا: الأزواج ثلاثةٌ: زوجُ مَهْرٍ، وزوجُ بَهْرٍ، وزوجُ دَهْرٍ.

■ **فأمَّا زوجُ مَهْرٍ:** فهو رجلٌ لا شرفَ له، يُسني المَهرَ ويزيدهُ ليُرْغَبَ فيه.

■ **وزوجُ بَهْرٍ:** فهو رجلٌ شريفٌ ولكنَّه قليلُ المال، تتزوجهُ المرأةُ لتفخرَ به.

■ **وزوجُ دَهْرٍ:** فهو الرجلُ الكفؤُ للمرأة، تتزوجهَ لتعيشَ معه أبدَ الدهرِ[1].

---

(١) «لسان العرب» مادة: بهر.

وتحدث العربُ عن الرجال والنساء فقالوا: النساءُ ثلاثٌ، والرجالُ ثلاثةٌ: فالنساء منهنَّ:

١ ـ لِيِّنةٌ هيِّنةٌ عفيفةٌ مسلمةٌ، تُعين أهلهاَ على العيشِ، ولا تُعين العيشَ على أهلها.

٢ ـ وأخرى وعاءٌ للولد.

٣ ـ وأخرى غُلٌّ قِملٌ، يضعهُ الله في عنقِ مَنْ يشاءُ.

والرجال ثلاثة:

الأول ـ ليِّنٌ عفيفٌ مسلمٌ، يصدر الأمورَ مصادرها، ويوردها مواردها.

والثاني ـ ينتهي إلى رأي ذي اللبِّ والمقدرة ـ أي: الحكيمُ صاحبُ الرأي السديد ـ فيأخذُ بقوله، وينتهي إلى أمره.

والثالث ـ حائرٌ بائرٌ، لا يأتمر لرشد، ولا يطيعُ المرشدَ[1].

من حكاية الزوج الأولى ـ نستشف أهمية اختيار الزوج لزوجها بتزكية الأهلِ لأخلاقه ونسبه ودينه، ومثل ذلك ما رواه الأصمعي عن رجلين خطبا ابنتهُ، وكانَ أحدُهما مقلا من المال فقيرًا، ولكنه عاقلٌ، والآخر كثير المال غَنيٌّ لكنَّه أحمقٌ، فشاور أبوها رجلاً يقال له أبو زيد، **فقال له:** «لا تزوِّجْ إلاَّ عاقلاً دينًا، فإن لم يُكرمْها لا يظلمها»، ثم شاور رجلاً يقال له أبو العلاء، **فقال له:** «زوِّجها المكثرَ من المال ـ أي: غني ـ فإنَّ مالهُ لها، وحمقه على نفسه»، فزوَّج ابنته لصاحب المال فلقي منه ما يكره في نفسه وفي ابنته، **فأنشد يقولُ:**

أَلهْفي إذ عَصَيْتُ أبا يزيدِ ○■○ ولهْفي إذا أطعتُ أبا العلاءِ

وكانت هفوةً مِنْ غَيْرِ ريحٍ ○■○ وكانت زلْقَةً من غير ماءِ[2]

---

(١) «الأمالي» للقالي، (٢/ ١٥٦).

(٢) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، (٦/ ١٠٠ - ١٠١).

٢ ـ لا أَبثُّ خَبَرهُ:

وتحدثت المرأةُ الثانيةُ ـ فقالت في مجلس أُمِّ زرع عن زوجها، وهي: عمرةُ بنت عمرو، : «زَوْجي لا أُبثُّ خَبَرهُ، إنِّي أخاف إلاَّ أذَرَهُ، إنْ أذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ».

تتحدث عمرةَ وكأنَّها تقول: إن خبرَ زوجي طويل فإن شرعتُ في تفصيله لا أقدر على إتمامه لكثرته، وكثرة ما فيه من أحداث تُبدي الكثير من عيوبه، فتقول إنْ أذكرْ أذكرْ عجره، والعجر الذي تقصدهُ في زوجها كثرة غضبه وعصبيَّته لدرجة أنَّه دائمًا ما يكون منتفخَ العروق التي تحت جلده، والبَجَرُ هو انتفاخُ بطنه، وهو شيء تذمه المرأةُ في زوجها، فيه لاَ تريد زوجًا أبجرَ منتفخ البطن.

وقد خافت عمرةُ التحدثَ عن زوجها بما فيه من عيوبِ الخصال، لعدَّة أسباب فهي إنْ أخبرت بشيء من عيوبه ونقائضه، أفضى ذلك إلى ذكرِ شيء آخر أقبحُ منهُ، وقد عاهدت صاحباتها ألاَّ تكتمَ شيئًا من صفته عنهنَّ، وبذلك تكون قد كرهت ما تعاقدت عليه معهنَّ، وذهبت إلى ستر عيوب زوجها لكثرتها، ولم تر أنَ تذكرَ بعضًا دونَ بعض وأنها إنْ ذكرت شيئًا من عيوبه تسبَّبَ في ذكر شيء آخر، فرأت الإمساك عن هذا أفضل وأولى.

٣ ـ إن أَنْطقِ أُطَلَّقْ:

أمَّا الثالثةُ ـ وهي «حُسْنى بنت نعب» فلم تكتمْ شيئًا كما تعاهدت مع صاحباتها بل أوجزت أخبارَه في جُمَل مختصرة جاء فيها: «زوجي العَشَنَّقُ، إنْ أَنْطقْ أُطلَّقْ، وإنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ»

جاء في هذه العبارة أنَّ العشنَّق: هو الطويل، وقيل: الطويلُ العنقِ، وتقصد حسنى هنا: أنَّ زوجها العشنقَ الطويلَ النحيفَ،

الذي ليس أمرُه إلى امرأته وأمرُها إليه، فهو يحكم فيها بما يشاءُ وهي تخافُهُ لأنَّه صقرٌ مقدامٌ جريءٌ.

والحقَّ إنَّ دوامَ الحياة الزوجية رهن بدوام المحبَّة بين الزوجين، فمع أيام الزواج ينمو إحساسٌ بالمودة والرحمة بين الزوجين، وقد عبَّر زوجٌ عن الوسيلة لتي تستديم بها زوجه مودته فخاطبها قائلاً:

خذي العفو منِّي تستديمي مودَّتي ○■○ ولا تنطقي في ثورتي حين أغضبُ
ولا تُكثري الشكوى فتذهبَ بالهوى ○■○ فيأباك قلبي والقلوبُ تَقَلَّبُ

وكما تحدثت حسنى عن عيوب زوجها فإنَّ أُمَّاً جاءت لتنصح ابنتها فقالت: «اختبري زوجك قبل الإقدام عليه، فانزعي رمحه، فإن سكت فاقلعي سنانَه ـ سهام الرمح ـ فإن سكت فاقطعي اللحم على ترسه، فإن سكت فاكسري العظامَ بسيفه، فإن سكت فاجعلي الإكافَ على ظهره وامتطيه، فإنَّما هو دابتُك».

٤ ـ زوجي كليل تهامة:

هذه الزوجةُ هي أول نساء مجلس أمُ زرع اللائي مدحنَ أزواجهنَّ، وهي «مَهْدد بنت أبي مرزمة»، **قالت مهدد**: «زوجي كَلَيْلِ تهامةَ، لا حرَّ ولا قرَّ، ولا مخافةَ ولا سآمَة»

لقد مدحت «مهدد بنت أبي مرزمة» زوجهَا مدحًا بليغًا قصدت به أنَّ زوجها ليس فيه أذيٌ، بل هو راحةٌ ولذاذةُ عيش كليل تهامة لذيذٌ معتدلٌ ليس فيه حرٌّ ولا بردٌ مُفْرطٌ، ولا تخاف منه غائلةَ لكرم أخلاقه، ولا يَسأمُ منها ولا يملُّ صحبتهَا.

وهذا الحبُّ الذي امْلَتهُ علينا «مهدد» عن زوجها له أعداءٌ وأشدُّ أعدائه الغيرةُ واشتدادُ الغيرة بالمرأة تذهلُها وتفقدها صوابها، فلا يستقيم قولُها ويهتز تفكيرُها، وفي كتاب «لسان العرب» مادة «نفر» أنَّ أعْرابيةً مُحبَّةً لزوجها، تزوَّج عليها، فمرت يومًا برجلٍ يرعى

الإبل في رأس جبلٍ فأرادت أن تقولَ له: أيها الرجَّل في رأس الجبل عسى رأيت بعيرًا يجر حبلاً ـ جريرًا ـ.

فقالت له: أيُّها الجبل في رأس الرَّجل عسى رأيت جريرً ـ حبلاً ـ يجر بعيرًا؟ فقال الرجلُ: أغيرى أنت أم غاضبةٌ؟ فقالت له: ما أنا بالغيرى ولا الغضبى، لقد فضح ذهولُها غيرتها المكتومةُ في جوانحها، فظهرت على لسانها وحديثها مع النَّاس، مما يجعل الغيرةَ وبالاً على صاحبتها.

ولعل أطرفَ ما نحكيه عن الغيرة في هذا الجانب ما حكاه الأصمعي لهارون الرشيد[1] عن رجل تزوَّج أربعَ نساء وطلَّق خمسًا في يوم واحد، فقد دبت الغيرةُ في أوصال أزواجه الضرائر الأربع فكنَّ في خلاف دائم، وفي يوم دخل عليهنَّ فوَجدَهُنَّ متنازعات، وقد نَفدَ صبرُه عليهنَّ وضاقَ بهنَّ ذَرعًا، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ونظر إلى إحداهن وقال: ما إخال هذا الأمر إلاَّ من قبَلك أنت، اذهبي فأنت طالق. فقالت الثانية: عجَّلت عليها الفراق، فقال لها: وأنت طالقٌ أيضًا، فقالت الثالثة: ضاق صدرُكَ عن أن تؤدِّبَ نساءَك إلا بلاطلاق؟ فقال لها: وأنت طالقٌ أيضًا!! فقالت الرابعة: قبَّحَ الله صنعَك، فقال لها: وأنت طالق أيضًا. وكان ذلك بمسمع جارة له، فقالت: أبيت إلاَّ طلاقَ نسائك في ساعة واحدة. فقال لها: وأنت أيضًا أيتها المؤنبة المتكلفةُ طالقٌ إن أجازَ زوجُك. فأجابه زوجُها من داخل بيته قائلاً: هيه، قد اجزتُ. قد اجزتُ. وإذا كان حديث «مهدد بنت مرزمة» قد جرَّنا إلى الغيرة في النساء، فإنَّ الرجال يغيرون على أزواجهم، فقد تدفع غيرة الرجل إلى أفعالٍ كثيرة.

---

(١) انظر: «العقد الفريد» (٦/ ١١٨).

فهذه حكاية امرأة تقدمت إلى القاضي في مدينة الرَّي عام ٢٨٦ هـ فادَّعى وكيلُها أمام قاضي الرَّي «موسى بن إسحاق» أنَّ لموكلته على زوجها خمسمئة دينار ـ مهرها ـ فأنكر الزوجُ، **فقال القاضي لوكيل الزوجة:** شهودُكَ، **قال:** أحضرتُهم، فطلب من أحد الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، **فقال الزوج:** تفعلون ماذا؟ ـ **قال الوكيل:** ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصحَّ عندهم معرفتُها، **فقال الزوج:** إنِّي أُشهد القاضي أنَّ لها عليَّ هذا المهر الذي تدَّعيه ولا تسفرُ عن وجهها، فردت المرأة وأخبرت بما كان من زوجها ـ **فقالت:** فإنِّي أشهدُ القاضي بأنِّي وهبت له هذا المهر وأبرأتُ ذمَّتَه في الدنيا والآخرة، **فقال القاضي:** يكتب هذا في مكارم الأخلاق. وحُبُّ الرجلِ لزوجه يدفعه للغيرة، غير أن وفاءَ الزوجِ المحبةِ يكونُ في المقابلَ بلسمًا يضمد الجراحَ ـ جراح عدمَ الثقة، ويزرع الثقة في نفوسِ الأزواج وأزواجهم.

٥ ... ولا يسأل عمَّا عهد:

«كبشةُ» هذه المرأة الخامسة في مجلس أم زرع كانت من اليمن، وكانت من النساء الموادح لأزواجهن في هذا المجلس، فقد أحبت في زوجها كرمه وغيرته على أهله وحبَّه لبيته وأسرته، **فقالت:** «زوجي إنْ دَخلَ فَهدَ، وإن خرج أسدَ، وَلا يَسْأَلُ عَمَّا عَهدَ».

هذا مدحٌ بليغ لزوجٍ مخلصٍ كريمٍ هادئ وقور في بيته هادر جسور، إذا خرج بين أقرانه، إذا دخل بيته لزم أهله يؤدِّي لهُنَّ حقوقهنَّ.

وهنا تتحدث كبشةَ عن الصفات الخلقية المرغوبة في الزوج، ولعل من أهم هذه الصفات الشبابَ، إذ أنَّ الرجل يرغب في المرأة الشابة الفتيَّة، وكذلك ترغبُ المرأةُ في الشابِ القويِّ، مما يساعد على قيام الغريزة بأكمل وظائفها في الاستخلاف واستمرار التناسل والحياة

بكل صورها. وهنا تعبَّر المرأةُ عن نفسها، وعن رغبتها في العيش في كنف زوج قوي الجسم والشخصية.

وجاء في أخبار العرب أنَّ «الحارث بن سليل» خطب إلى «علقمة بن خصنصة» ابنته «الزبَّاء» وكان الحارث شيخًا عجوزًا، والزَّباء شابة فتيةٌ جميلةٌ، فنادى علقمةُ زوجَه **وقال لها**: إنَّ الحارثَ بن سليل، سيد قومه حسبًا ومنصبًا ونسبًا، قد خطب ابنتنا الزبَّاء فلاينصرفن إلاَّ بحاجته، فأريدي ابنتك على نفسها ـ أي: احمليها على قبوله زوجًا، فدخلت الأم على ابنتها الزبَّاء **وقالت لها**: أي الرجال أحبُّ إليك، الكهل الجحجاح ـ السيد الكريم ـ الواصل المنَّاح ـ الكثير العطاء، أم الفتى الوضَّاح الذهول الطمَّاح. **فقالت الزبَّاء**: إنَّ الفتاة تحبُّ الفتى ـ أي: الشاب القوى. **فقالت الأم**: يا بنيَّة، إنَّ الشباب شديدُ الحجاب، كثيرُ العتاب. **قالت الزبَّاء**: يا أماه! أخشى من الشيخ أن يُدنِّسَ ثيابي، ويُبلي شبابي ويُشمت بي أترابي. فلم تزل بها أمُّها حتى وافقت، فتزوجها الحارث بن سليل، ثم رحل إلى قومه، وإذا به ذات يومٍ جالسٌ وهي جانبه، إذ أقبل شبابٌ من بني أسد يتصارعون، فتنهدت الزبَّاء وبكت، **فقال الحارث**: ما يبكيك، **فقالت**: مالي وللشيوخ الناهفين كالفروخ ـ أي: ضعافٌ كالفروخ الصغيرة، **فقال الحارث**: أما وأبيك، لربَّ غارةٍ شهدتها، وسبيَّةٍ أردتُها، فألحقي بأهلك لا حاجة لي فيك.

ونحن نرى من هذه القصة أنَّ المرأة تريد الرجل القوي الشاب ولو ارتدت قوَّته عليها ـ ونعود إلي كبشة لنرى أنها أحبت زوجها لكرمه وقوته وشبابه، قوته مع أقرانه وإخوانه وأعدائه، فهو قويُّ الشخصيَّة مع الصديق والعدو، وهو شاب يؤدي لأهله حقهم في داره فهو: «إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، ولا يُسأل عمَّا عَهد».

٦ ـ إذا أكلَ لفَّ، وإذا شَربَ اشتفَّ:

المرأة السادسةُ هي «هند» وقد اسرفت هند في ذمِّ زوجها فقالت: «زوجي إذا أكلَ لَفَّ، وإن شربَ اشْتَفَّ، وإن اضْطَجَعَ التفَّ، ولا يُولج الكَفَّ ليَعْلَمَ البثَّ».

تتحدث هند عن صفات قبيحة يتصفُ بها زوجُها، فقد وصفتهُ بالشدة في الأكلِ والنهمِ والبُخلِ، والمرأة تذمُّ الرجلَ بكثرة الطعام والشراهة في تناوله، ويمكن أن تمدحَ الرجلَ بقلة النوم. فمن وصفها الأول قالت: زوجي إذا أكل لفَّ ـ أي: أكلَ كثيرًا، وإذا اضطجع التفَّ، ولا يولجَ الكفَّ ليعلمَ البثَّ ـ فهذا ذمٌ للزوج، فإن اضطجع ورقد التف في ثيابه من كل ناحية.

٧ ـ زوجي عياياء:

قالت السابعة ـ وهي «حسنى بنت علقمة»: زوجي عَياياءُ، طَباقاءُ، كل داء لهُ دواءُ، شَجَّك، أو فَلَّك، أو جمعَ كُلاً لك».

والرجل العَياياء هو الضعيف، أما وصفها شجَّك أو فلَّكَ أو جمع كُلاً لك ـ فهي تقصد أنه سيء الخلق يضربُها بحيث يشجُّ رأسَها، أو يفلُّ: بمعنى يكسرُ العظامَ من الضرب، فغضبه معها إما جرحٌ في الرأس أو كسر في العظام أو كلاهما معًا.

٨ ـ المس مسُ أرنب:

قالت المرأةُ الثامنة ـ وهي «هند بنت أومل بن عبد»: «زَوْجي الرِّيحُ ريحُ زَرْنَب، والمسُّ مَسُّ أرْنَب، أغْلبهُ والناس يَغلبُ»[1].

تمدح هند زوجها مدحًا بليغًا، فتستعين بالبيئة وجمالها، فيتجه وصفُها إلى نبات طيِّب الريح، أو شجر طيِّب الريح، وقد استعمله العطارون ـ ويخلط بالطيب لرائحته العطرة أي نبات الزرنب.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٦٤).

وتصف هند زوجها بلين الجانب، وحُسن الخلق، والعشرة معه فله مسُّ الأرنب في نعومته وليونته وملمس وَبَره، أما تشبيهها إيَّاه بريح الزرنب فقد قصدت إنه: طيِّبٌ ثناؤهُ في النَاس، وثناءُ الناس عليه، وطيبٌ جسدُه، وعطرُ ثيابه، أرادت بذلك: لينَ عريكته وحسنَ خُلقه.

٩ ـ رفيع العماد:

وكما مدحت «هند بنت أومل بن عيد» ثامنةُ النساء في مجلس أمِّ زرع بحديثها الطيب. ريح زوجها الطيِّب: كريح الزرنب، ولين جانبه كمسِّ الأرنب، وتواضعه عندما يغلب، وحزمه وشجاعته عندما تقول والناس يغلب ـ كأنها تقول للرجل بل ولكل رجل: ـ كُنْ ريحَ زرنب عند زوجك، وكن كمسِّ الأرنب في تراحمك ولين جانبك، وكن مغلوبًا لزوجك تواضعًا ورحمة، والناس تغلب دليلاً على نصرتك الحقَّ ودحضكَ للباطلِ ومساعدة المظلوم.

جاءت التاسعةُ لتمدحَ زوجها في مجلسَ أم زرع وتقول: «زَوْجي رفيعُ العماد طويلُ النجاد عظيمُ الرماد قريبُ البيتِ من النادي، لا يشبعُ ليلَهُ يُضاف، ولا ينامُ ليلهُ يخافُ».

ومقصدها من رفيع العماد أنها تصف زوجها مادحة بأنه رجلُ عظيم الشرف والمكانة، فوصفته بالشرف وثناء الذكر، وأن بيته في الحسبِ والنسَب رفيعَ العماد ليراه الضيوفُ، وأصحابُ الحوائج فيقصدوه، وهكذا تكون بيوت أهل الجود والكرم، وهو طويلُ النجاد أي: طويلُ حمائلِ السيف، فالطويلُ يحتاجُ إلى طول مماثل لسيف، والعرب تمدَح بذلك، وقولها عظيم الرماد دليلٌ على كرمه وكثرة أضيافه فيكثر وقودُه، ورمادُه بكثرة إعداده لطعامِ ضيوفه، وقيل لأنَ نارَه لاَ تُطفأ بالليل ليهتديَ بها الضيفانُ، والرواد يعظمون النيران في ظلام الليلِ ويوقدونها على التلال ومشارف الأرض، ويرفعون أقباس النار على الأيدي لتهتديَ بها الضيفان.

وقولها قريبُ البيتِ من النادي، لأنَّ النادي منتدى القومِ ومجلسهم، وقد وصفت زوجها بالكرم والسؤدد، والضيوف يقصدون النادي لأنَّ أصحابَ النادي يأخذونَ ما يحتاجونَ إليه في مجلسِهم[1].

وقد حصرت صاحبتنا هنا مدحهَا في جانبين أساسيين هما:

أولاً ـ المكانة الرفيعة لزوجها والفخر به.

ثانيًا ـ الكرم وحسن الضيافة وكيفية معاملة الضيف.

وخدمة الضيف عند العرب شرفٌ لا يأباه أحدٌ منهم مهما كانت مكانته في المجتمع، **فقالوا**: أربعٌ لا يأنف منهنَّ أحدٌ، ولا ينبغي لشريف أن يأنفَ منهنَّ وإن كان أميرًا:

١ ـ قيامُهُ من مجلسه لأبيه.

٢ ـ وخدمتهُ للعالمِ يتعلَّمُ منهُ.

٣ ـ والسؤالُ عمَّا لا يعلمُ ممن هو أعلمُ منهُ.

٤ ـ وخدمةُ الضيف بنفسه إكرامًا له[2].

وقد نُسبَ لعبد الملك بن مروان **قوله**: أربعٌ لا يُستحى من خدمتهم: السلطانُ، والوالدُ، والضيفُ، والدابةُ»[3].

وكان خيرُ مدحٍ يمدحُ به الزوج أنَّه كريمُ العطاءِ سخيٌّ، يكرمُ الضيفَ، ويُؤثره على نفسه، هذه مأثرة حفظتها الزوج الوفيَّة لزوجها، ومدحته بها.

١٠ ـ زوجي مالكٌ:

العاشرةُ هي «كبشةُ بنت الأرقم» وكانت من النساء اللائي أثنينَ على أزواجهنَّ **فقالت**: زَوْجي مالكَ وما مالكَ، مالكٌ خيرٌ من ذلك،

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم، الحديث (١٥/ ٢١٦).

(٢) «الإمتاع والمؤانسة» (٣/ ٤).

(٣) «المتعطف» (ص٢١٣).

لهُ إبلٌ كثيرات المبارك، قليلاتَ المسارح، إذا سَمعْنَ صَوْتَ المزهرَ، أيقنَّ أنَّهُنَّ هوالكُ».

وفي حديثها أنَّ لزوجها إبلاً كثيرةً بفنائه، لا يتركُها تسرحُ إلاَّ قليلاً ومعظم أوقاتها باركةٌ بفنائه، فإذا نزل به الضيوفٌ كانت الإبل جاهزةً قريبةً فيقدم لهم من ألبانها ولحومها، والمزهرُ هو موقد النار الذي يُعَدُّ عليه الطعامُ للضيوف، وقيل إنه العودُ الذي يُضربُ فيحدثُ صوتًا موسيقيًا. وقد أرادت كبشةُ أن تقولَ: إنَّ زوجَها عوَّدَ إبله إذا نزل الضيفانُ نحر لهم منها، وآتاهم بالعيدان والمعازف والشمرات، فإذا سمعت الإبلُ صوتَ المزهر علمنَ أنَّه قد جاءه ضيوفٌ وأنهنَّ منحوراتٌ هوالكُ»[1].

ومن شيم العرب وكرمهم ما رُوي عن أنَّ رجلاً كان صائمًا في عام جدبٍ وقحط، فابتلى برجل عند فطره، وقد أتى بقرصين منَ الخبز فألقى إليه أحدهما ثم قال: ما هذا بمُشبعه ولا بمُشبعي، ولأن يشبع واحدٌ خير من أن يجوع الاثنان، فألقى إليه بالرغيف الآخر، فلما أوى إلى فراشه أتاه آت في المنام فقال: سَلْ؛ فقال: أسأل المغفرةَ، قال: قد فُعل ذلك بك؟ وقال: فإني أسأل أن يُغاث الناس»[2].

وقد بينت كبشة في حديثها هذا بأنَّ الرجل يحبُ أنْ يكونَ كريمًا حتى تُقْبِلَ عليه النساءُ إذا خطبهنَّ.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/ ٢١٦).

(٢) «عيون الأخبار» كتاب «النساء» (ص١٨).

١١ ـ زوجي أبو زرع:

قالت الحـاديةَ عشـرَ «أم زرع» وهي سيـدةُ المجلس: زوجي أبو زرع ومـا أبو زرع أنـاس من حُليٍّ أذني ـ أي مـلأ أذنـي بالذهب، فيتدلَّى مؤنسًا لها لكثـرة الذهب، ثم قالت: ملأ من شحمٍ عَضُدي، وبجحني فَبجحت إلى نفسي». أي أنه احترمني وعظمني، فعظمت عند نفسي، مما أفرحني وأسعدني دائمًا. وقالت: ووجدني في أهل غُنَيمةٍ بشقٍّ فجعلني في أهل صهيل وأطيط».

وهنا تصف حـالها حين جـاءها خاطبًـا فقـد كانت في أسـرة متواضـعة فقيرة، فـهي في أهل غُنَيْمة ـ تصغـير للغنم، وليس في أهل خيلٍ أغنياء، والأطيط هنا صوت الإبل والصهيلُ صوتُ الخيلِ إشارة إليهما وإلى ثراء أبي زرع وغناه. لقد كانت في شظف العيش وأصبـحت في بحبوحـته، ووفرة الحـياة والعـيش. فعند أبي زرع أشربُ حتى أشبعُ وأرفعُ رأسي عن الإناء استـغناءً وشبعًا. وتحدثت عن أم أبي زرع فـقالت عن حـماتهـا أكرمـها رداح أي أحـمالهـا وحاجيتهـا التي تصنعها عظيمة ممتلئة بالخير والطعام الكثـير، وبيتها فسيح كثـير الخير والنعم. **وعن ابن زوجها تقول:** إنه خفيفُ الظلِّ، قليلُ اللحمِ، وهو شجاعٌ معتز بنفسه كما قالت عنه: ابنُ أبي زرع، مضجعهُ كمسلَ شطبه، ويشبعه ذراعُ الجفرة. **وعن ابنة أبي زرع تقول:** بنت أبي زرع ومـا بنت أبـي زرع طوع أبيـهـا وطوع أمـهـا. ملء كسائها، وغيظ جارتها.

وعن جارية أبي زرع قالت: فهي لا تخرُج سـرًا ولا تظهره، وتهتمُ بشؤون البيت نظافةً وتطهـيرًا، ولا تخون في الطعام فتخفـيه وتخبؤه هنا وهناك.

وبعد هذا الوصف تفاجئنا أمُّ زرع بأنَّ زوجها خرج في وقت ربيع وخصب ولقى امرأة صغيرة السن معها طفلين فتزوجها - فتتزوج هي من رجل كريم خلوق أعطاها من المال الكثير، وأفاض عليها بما عنده من نعم، حتى عجزت عن حصرها».

ثم تقول في النهاية: فلو جمعت كل شيء أعطاني فما بلغ أصغر آنية أبي زرع».

لقد احتفظت بالودِّ لزوجها الأول على الرغم مما حدث، وطلاقها منه وزواجها من رجل آخر كان كريمًا سخيًا خلوقًا أيضًا.

ولما انتهت عائشة من وصف المجلس، قال النبي ﷺ: «***كنت لك كأبي زرع لأمِّ زرع، إلاَّ أنَّ أبا زرع طلَّق وأنا لا أطلِّق***»[1].

وفي روايةَ ثانية إنه قال ﷺ: «***كنت لك كأبي زرع في الألفةِ والرخاء، لا في الفرقةِ والخلاء***».

فكان ﷺ قدوةً للأزواجِ في المحبَّةِ والموافقةِ والمواصلةِ. وتجيب عائشة رضي الله عنها قائلة: «**يا رسول الله بل أنت خيرٌ لي من أبي زرع لأمِّ زرع**».

وقد رأينا أن حديث هؤلاءِ النسوة له فوائدُ عديدةٌ أهمُّها: ضرورة المرحِ والمداعبة بين الرجل وأهله، ذكرُ المرأةِ إحسانَ زوجِها، وحضِّ النساء على الوفاء لأزواجهنَّ، وفيه إخبار للرجل بصورة حاله مع أهله، وتذكيره بذلك.